Arabic Language & Literature
Vol. 18, No. 4, Winter 2023
Manuscript Type: Research Article

https:// journals.ut.ac.ir/
Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
DOI: 10.22059/jal-lq.2022.329938.1198

The dystopia of death in the modern Iraqi novel
(The Pomegranate Tree of Sinan Anton's Novel Alone as a Model)

Jassim Najarsh[1*], Sadeq Ebrahimi Kawari[2], Suhad Jadri[3]

1. PhD Student, Department of Arabic Language and Literature at Islamic Azad University, Abadan Branch
2. Associate Professor, Arabic Language and Literature, Islamic Azad University, Abadan Branch
3. Assistant Professor, in Arabic Language and Literature, Islamic Azad University, Abadan

(Received: September,02, 2021؛ Accepted: June, 27, 2022)

Abstract

One of the most important and fundamental human instincts is the existential instinct that man develops according to this desire, and according to Freud, the instinct of death brings fear, self-harm and suicide to man. The issue of death is one of the most complex issues that has cast its shadow over man over the years and has placed him in the contradiction of the joy of life and the fear of doom; On this basis, scientists from various fields try to recognize that Freud was the leader of this thinking. Freud believes that there is no contradiction between the joy of life and the fear of death, and the two can be studied together under the titles of Eros and Thanatos. Sinan Anton is one of the Iraqi novelists who has given a high place to death in his novels, among which the novel "Only in the Pomegranate" is one of the most important novels that has dealt with the various issues of death .This research is written based on a descriptive-analytical method to divide death into three main axes: - Terror, liquidation, and kidnapping, then insanity with the axes of anxiety, fear, dreams and nightmares and addiction, and then imprisonment that escapes the most important tone. It is its axis. And as a result of this research, we learned that Sinan Anthony used all these meanings to describe death, and by washing each corpse, he expressed the way of death.

Keywords

The Iraqi Novel, Thanatos, Dystopia, Death, "Alone with the Pomegranate Tree", Sinan Antoun.

Corresponding Author, Email: Negaresh63@yahoo.com

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ۱۸ ، العدد ۴ ، الشتا ۲۰۲۳م
صفحة ۵۳۷ - ۵۵۵ (مقالة محكمة)

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

ديستوبيا الموت في الرواية العراقية الحديثة
(رواية "وحدها شجرة الرمان" لـ (سنان أنطون أنموذجا)

جاسم نگارش[۱]*، صادق إبراهيمي كاوري[۲]، سهاد جادري[۳]

۱. *طالب مرحلة الدكتوراه ، قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة آزاد الإسلامية فرع آبادان*
۲. *أستاذ مشارك ، في اللغة العربية وآدابها ، جامعة آزاد الإسلامية فرع آبادان*
۳. *أستاذ مساعد ، في اللغة العربية وآدابها ، جامعة آزاد الإسلامية فرع آبادان*

(تاريخ الإستلام: ۲۰۲۱/۹/۰۲ تاريخ المراجعة: ۲۰۲۲/۲/۱۲ تاريخ القبول: ۲۰۲۲/۰۶/۲۷ تاريخ النشر: ۲۰۲۲/۰۶/۲۸)

الملخص

المحور الرئيسي والأساسي في كينونة البشر هي الغرائز؛ ومن خلال هذه الغرائز يكوّن البشر شخصيته وصيرورته باحثا عن حياة هادئة وبعيدة عن التوتّرات والإضطرابات النفسية ، وقد كان "فرويد" يعتقد أنّ غريزة الموت هي الغريزة التي تجلب الإنسان إلي الخوف ، والمازوخية والإنتحار. وأصبحت مسألة الموت مسألة تحمل غموضا لم يفهمه البشر؛ واستطاعت غريزة الموت أن تسدل ظلالها علي المرء طيلة حياته ، ممّا جعلته يعيش بين لذّة الحياة وذعر الفناء ، لهذا اهتمّ مفكرون متنوعو الإتجاه والطابع بمثل هذه الأمور ، وكان رائد هذه الحركة هو "فرويد". يري هذا العالم النفسي أنّ لا تناقض بين غريزة الحب وغريزة الموت وتمتدّان هاتان الغريزتان تحت عنوان الإيروس والثاناتوس. سنان أنطون روائي عراقي أعطي في رواياته حيزا واسعا للموت ودلالاته ، وكانت رواية "وحدها شجرة الرمان" رواية تتحدّث عن الموت بأشكاله المختلفة ، من قتل وجنون وسجون. قام هذا البحث علي المنهج الوصفي- التحليلي ليقسّم الموت ودلالاته إلي ثلاثة محاور رئيسية: القتل بمحاور: -الإغتيال ، وتصفية الحسابات ، والإختطاف ، ثم الجنون بمحاور: -القلق والخوف والحلم والإدمان ، و-السجن كان محوره الأساسي هو الهروب من الوطن؛ كما استنتجنا في نهاية المطاف أنّ سنان أنطون وصف جميع الدلالات التي تختصّ بالموت من خلال "جواد" بطل الرواية ، حيث كان يغسل الأموات ويصف طرقَ الموت التي تأتي بالجثث.

الكلمات الدليلية

الرواية العراقية ، الثاناتوس ، الديستوبيا ، الموت ، "وحدها شجرة الرمان" ، ، سنان أنطون.

---

* الكاتب المسؤول

Email: Negaresh63@yahoo.com

المقدمة

اكتشف "سيجموند فرويد" في حياة الإنسان ونشاطه صراع مبدأين متناقضين: مبدأ اللذة التي سمّاها الإيروس ، والشعور بالذنب أو الرغبة بالموت حيث سُمّيت بالثاناتوس (غريزة الموت) وهاتان الغريزتان الأوليتان الحب والموت ، الإيروس والثاناتوس ، تحددان كامل بنية السيكولوجية الإنسانية ، وبمعني أوسع ، تحددان الثقافة الإنسانية كلها. الرواية العراقية في الآونة الأخيرة اتّجهت إلى الواقعية لكي تعبّر عن مأساة الفرد العراقي ، وأرادت أن تجسّد حجم المعاناة التي عانى منها الشعب العراقي؛ وكان أبرز الواقعيين في الأدب العراقي هو سنان أنطون. سنان روائي عراقي لديه أربع روايات في حقل الواقعية :إعجام ، والفهرس ، ويا مريم ، و وحدها شجرة الرمان ، ونرى في جميع هذه الروايات مادة الموت تخيّم على الفضاء الدلالي للرواية ، وأراد الروائي من خلال شخصياته الكشف عن مادة الموت ، كما نرى شخصية جواد في رواية "وحدها شجرة الرمان" هي أكثر شخصية في روايات سنان أنطون ، حيث تتعامل مع الموت من خلال مهنتها التي كانت "امغسلجي" أي من يغسل الأموات. هذا البحث يحاول الكشف عن مادة الموت التي عبّر الروائي من خلالها عن أمور كثيرة كالجنون ، والقلق ، والحلم ، والإدمان ، واللإختطاف وتصفية الحسابات.

منهج البحث وأهميته

إهتمّ "سنان أنطون" في رواياته ، لاسيما رواية "وحدها شجرة الرّمان" ، بعنصر الموت اهتماما فائقا ، حيث يعتبر هذا العنصر بؤرة خصبة للدراسة الدلالية وتبيين أنواع العلامات لفهم الرواية ، إذن يظهر هدف البحث ، في دلالة الثاناتوس في الرواية وكشف دلالاته الخفية وأنواع الموت والوظائف التي يؤدّيها في النص الروائي ، والمنهج المتبع في البحث وصفي-تحليلي.

أسئلة البحث

السؤالان المطروحان اللذان يخصّان البحث في السطور التالية:

- كيف تجلّي الموت في "وحدها شجرة الرمان"؟
- ما الدوافع النفسية والاجتماعية التي جعلت الروائي يكْثِرُ مِن وصف الموت؟

فرضية البحث

وعلي هذا ، أثبتت الفرضيات علي أنّ سنان أنطون استغلّ الموت عبر ثلاث دوال رئيسية وهي القتل ، والجنون ، والسجن؛ حيث تتمحوّر هذه الدوال علي الترتيب التالي: القتل: الاغتيال ،

تصفية الحسابات ، الاختطاف ، والجنون: القلق والخوف ، والحلم ، والإدمان ، والسجن: الهروب فحسب. وكان القلق والخوف على مستقبل وطن الروائي هو أهم دافع نفسي للكاتب ورسالته الاجتماعية هي نقل الواقع العراقي لباقي المجتمعات لكي يعبّر عن وحشية الغرب وما أدى الغزو من كوارث إنسانية.

خلفية البحث

فلسفة الموت ودلالاته في الأدب ، حيث تركزت عليه الفلسفة الوجودية ، بات يفتح شفرات النصوص الروائية ، وبما أنّ سنان أنطون روائي مهم في الأدب العراقي الحديث إلّا أنّنا نرى دراسة الموت من جانب آخر تُوصِل القارئ إلى فهم النص.

نوماس ، كريمة ، مقالتها بعنوان "التحليل السيميائي للبنية السردية في رواية يا مريم لـــسنان أنطون" ، مجلة جامعة كربلاء العلمية ، ج ٢ ، العدد الرابع ، من سنة ٢٠١٤. حيث اهتّمت الكاتبة بالسيميائية ودلالات الحُزن والتوترات للشارع العراقي والبراز الإقليمي والتوترات القبلية والطائفية العراقية وسيميائية الحنين الي الماضي وهي دراسة تستحق التقدير والقراءة. ومن الآثار الكثيرة التي عالجت القضايا الوجودية في الأدب نستطيع أن نذكر ما يلي:

كتَب مرامی، جلال و حبيب كشاورز (١٣٨٨) مقالا بعنوان «**ايهام تناقض ميان زندگی و مرگ در اشعار ابوالقاسم الشابی**» ، وقد نُشرَ في مجلة زبان و ادبيات عربي. وشرحا تأثّر الشابي بالأدب الأندلسي ، وإنتماء الشابي إلي المدرسة الرومنطيقية ، وأحداث بعد موت والد الشابي ، والتناقضات في أفكاره.

كتب فاطمه جمشيدی و حميد احمديان (١٣٩٦) مقالا بعنوان «**تبيين ديدگاه‌های سه‌گانه عبدالوهاب البياتی پيرامون مرگ**» ، في مجلة پژوهشنامه ادب غنايي دانش‌گاه سيستان و بلوچستان. ولخّصت رؤية البياتي إلي ثلاثة أقسام: التأمّل بالموت والكره منه ، محاولة التغلّب علي الخوف من الموت ، اليأس من المقابلة بالموت.

وهناك مقال بعنوان "الموت ثيمة فجائعية في الرواية العراقية الجديدة"وحدها شجرة الرّمان لـسنان أنطون" أنموذجا" بقلم سمية سليمان الشوابكة حيث نشرت هذه الدراسة في مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وتنظر هذه الدراسة في مدى نجاح الروائي في توظيف هذه الثيمة الفجائعية فنيا في الرواية بطريقة مغايرة للمألوف أغنت المحكي بما عبأته من دلالات وإيحاءات ومعطيات جماليّة دالة.

والجديد في هذا البحث هو دراسة ظاهرة الموت في أدب سنان أنطون و الخوض و التّطرّق لمسألة الثاناتوس في رواية "وحدها شجرة الرمان".

سنان أنطون

سنان أنطون كاتب ومخرج وشاعر عراقي وُلد في بغداد عام ١٩٦٧. وبعد حصوله علي شهادة الليسانس في الأدب الإنجليزي هاجر إلي الولايات المتحدة الأمريكية لإكمال الدراسة وهروبا من الحرب الخليجية عام ١٩٩١ ، حصل علي شهادة المجستير عام ١٩٩٥ والدكتوراه سنة 2006 من جامعة "جورجتاون" في الأدب العربي كما أصبح مدرسا في تلك الجامعة. نشر روايته «إعجام» (٢٠٠٣) والتي تُرجمت إلي شتّي اللغات: كالإنجليزية والبرتقالية والإيطالية والنروجية ، ومن ثم في عام ٢٠١٠ نشر رواية "وحدها شجرة الرمان" والتي كانت من أهم أعماله الأدبية ، ورواية يامريم ٢٠١٢ وفي الأخير رواية الفهرس عام ٢٠١٦.

الموت

يعد الموت أصعب ما يواجهه الإنسان في هذه الحياة وهو عاقبة كل حي وقيام كل شيء ونهاية كل موجود ، وما يهمنا في هذا المقام الوقوف علي ماهيته قبل الشروع في تبيان صوره في الأعمال الأدبية. جاء تعريفه من الناحية اللغوية في لسان العرب في مادة (موت) الأزهري عن الليث ، والموت خلق من خلق الله ، الموت والموتان ضد الحياة ، والمؤات بالضم ، الموت ، مات ، يموت ، ويماتت ، والإسم من كل ذلك الميتة ، ورجل ميت وميت ، وقيل الميت الذي مات والميت والمائت ، الذي لم يمت بعد ، وقال بعضهم: قيل ميت ولم يقولوا ميت لأن أبنية ذوات العلة تخالف أبنية السالم. قال الزجّاج: الميت الميت بالتشديد إلا أنه يخفف يقال "ميت وميت" والمعني واحد يستوي فيه المذكر والمؤنث ، والموت السّكون ، وكل ما سكن فقد مات وهو علي المثل. (ابن منظور ، ٢٠٠٥م: ١٤٧).

ورد في أساس البلاغة لصاحبه الزمخشري: مادة (موت) مات موتة لم يمتها أحد ، ومات ميتة سوء ، وأماته الله وهو ميت وميت ، وهم موتي وأموات وميتون ، وموّتت البهائم ، وأكل الميتة وفلان مستميت مسترسل الموت لمستقبل. (الزمخشري ، ٤٣٤). شغلت مشكلة الموت جانبا غير قليل من تفكير الفلاسفة والمفكرين ، فظهرت تأملات ميتافيزيقية وآراء فلسفية واجتهادية فكرية شتّي عبر التاريخ الفكري الطويل للبشرية ، تسعي للوصول من خلال التأمل العقلاني للموت إلي التصالح معه باعتباره عدما نهائيا ، أو بحسبانه خلودا غير شخصي أو بوابة لحياة أزلية بعد مرحلة اختبار عابرة في الحياة الدنيا. شكل الموت مصدرا هاما

للفلسفة ، وقوة دفع كامنة وراء التفلسف الذي يهدف بالأساس إلي التحكم في هذا الموجود والتصالح مع حتميته ، وتجاوز الرهبة التي يشكلها.

ثاناتوس وجدلية الموت عند سنان أنطون

معرفة الموت التي سُمّيت بالـ«THANATOLOGY» ساحة علمية تهتمّ بالقضايا المعرفية التي تختصّ بالموت وتبعاته النفسية؛ فالتاناتولوجي يبحث في طيات الموت ومعرفة الأمور والشرايط والحالات النفسية من ذعر وهروب؛ ولاننسي بأن جميع المخلوقات تموت ولكن البشر مع علمه بالموت تمضي حياته بين الخوف والبحث عن الخلود ممّا جعل العلماء يكرّسون جُلّ إهتمامهم بقضايا كهذه؛ فخوف البشر من الموت يجعله أن يري حياته منتهية عن قريب لهذا تراه يتوسل بشتّي الطرق للهروب منه وهذه هي غرائز تتحكم بالبشر. لذا يري فرويد أنّ الموت أمرٌ طبيعيٌّ إذا كان وفق الغريزة فيقول:«الموت شيء طبيعي. الموت هو موتنا نحن ومع ذلك لانفكر فيه إلا بوصفه موت الآخرين» (فرويد ، ١٩٩٢م: ٢٧).

تناول سنان أنطون في رواياته موضوعات شتّي وخلق أمامنا فضاءات جمالية غائرة في طبقات عميقة فنصه السردي منجم غزير وكنز وفير في شكله ومضمونه؛ ومن أبرز القضايا التي عالجها سنان أنطون هي قضية الموت إذ تكرّرت في رواياته بصورة لافتة ذات أبعاد و دلالات عميقة ؛ وقدّم سنان في هذه القضية الكونية رؤي جديدة وأفكار عميقة تجسّد نظرته لهذه المسألة المهمّة ، حيث تتعلّق بالوجود الإنساني بالمعني العام ، ومصير الفرد العراقي بمعناه الخاص. نحاول من خلال هذا المقال أن نقف عند هذه الجدلية وتجلياتها في رواية "وحدها شجرة الرمان" وبيان فلسفة الروائي فيها وموقفه من الموت الذي حلّ بالساحة العراقية والذي تعددت أشكاله وصوره في نصوصه السردية: كالقتل والجنون والسجن.

تجليات صورة الموت في رواية "وحدها شجرة الرمان"

شكّل موضوع الموت هاجسا للروائي العراقي المعاصر علي اختلاف انتماءاته الفكرية ، بحكم معايشته له يوميا وقتئذ ، فجاءت نصوص كثيرة له اختبرت فضاء الموت ، وكانت مثقلة بعناصر كالمرض والقلق والهروب والإغتيال. تناولت رواية "وحدها شجرة الرمان" بين صفحاتها الأزمة الحديثة في العراق الحديث وما صاحبها من قتل وسفك لدم الأبرياء ، واختطاف وهروب وخوف ورعب وعنف وقلق ، وتصفية للحسابات ، وأحلام بالعودة إلي عراق الأمن والأمان وعودة الحقوق المسلوبة ، كلّ هذا نجده حاضرا في رواية "وحدها شجرة الرمان" من خلال شخصية جواد بطل الرواية ليروي لنا مشهدا مروّعا من حياة العراق

المعاصر و الفتنة التي هيمنت علي سماءه ، وربّما جملة جواد بطل الرواية بعد اختفاء حمّودي حينما قال: «بحث أخوه في الصور التي كانت قد التقطت لكل الجثث التي تكدّست في زوايا المكان الذي لم يعد يستوعب كل هذا الموت» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٥٢). تفي بالغرض وتشرح الموت وحضوره البارز في نص الروائي وفي العراق الحديث. صورة الموت في الرواية يمكن رصدها من خلال الثلاثية:

القـــتل:	الإغتيال	تصفية الحسابات	الخيانة	
الجنون:	القلق	الخوف	الحُلم	الإدمان
السجن:	الهروب	اختطاف		

ومن خلال هذا الثلاثي سنبيّن الموت ودلالاته الرمزية في الرواية.

القتل

تجلّت ظاهرة القتل في رواية "وحدها شجرة الرمان" في أمور كثيرة ، منها الاغتيال وتصفية الحسابات ، والقتل في الحروب حيث أدّي إلي القلق والخوف والهروب. لم يختصر القتل علي يدِ حزب البعث فحسب بل يمتدّ حتّي بعد اضمحلاله ، فالروائي يقول: «الحَكم الأمريكي قتل بما فيه الكفاية والآن يكتفي بالقتل بين حين وآخر ، ويسمح للاعبين المحليين بأن ينوبوا عنه لأنهم أكثر شراسة أحيانا» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٥١)؛ فالقتل في العراق وفقا لأحداث الرواية يتعدّد. روايات سنان أنطون مرآة للغزو الأمريكي وقد تميز سنان بوصف الصدمة والرعب ، وتدمير البني التحتية وخاصة التعليمية كحرق كلية الآداب والفنون الجميلة ، والصحية ، وحرق مؤسسات الخدمة المدنية من خلال الإستخدام المفرط للقوة وشن الغارات الوحشية بصواريخ أمريكية.

الإغتيال وتصفية الحسابات

الإغتيال مصطلح لوصف عملية قتل منظّمة ومتعمّدة «تستهدف شخصية مهمّة ذات تأثير فكري أو سياسي أو عسكري أو قيادي ، ويكون مرتكز عملية الاغتيال عادة ، أسباب عقائدية أو سياسية أو اقتصادية أو انتقامية» (حجاج ومليكه ، ٢٠١٧م: ١٢٦). توظيف الاغتيال في رواية "وحدها شجرة الرمان" نتيجة حتمية ومقدّمة أساسية لفعل الموت المسيطر علي الرواية ، حيث نجده عنصرا رئيسيا عبر صفحات الرواية؛ فيطلعنا سنان علي أخبار تصفية الحسابات في بداية الرواية قائلا:

«لكن الرسائل تتراكم كل يوم يا أبي! أضعاف ما كان يمر عليك حتّي في أسبوع كامل يمر عليّ في يوم» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٠-١١).

من خلال هذا النص روي "جواد" للقارئ تلك الأحداث التي بُنِيت عليها مشاريع القتل ، وتصفية للحسابات والاختطافات ، حيث يقايس عصره بعصر والده الذي عاش قبل الإحتلال ، ثم حاول الروائي أن يخلق فضائين متلائمين مع الوضع الموجود ، زمن يعود إلي ما قبل الحرب حيث كان حزب البعث ، والقتل وتصفية الحسابات والسجون لديهم ، وزمن الحرب والغزو الأمريكي الذي دمّر كل شيء وتكاثرت ظاهرة الموت فيه. فعندما أراد أن يغسّل ميتا في جبينه ثقب جراء رصاصة ، يسئل أهله عن القتل:

«قال أحد الرجال الذين أحضروه إنّهُ صاحب محل قُتِلَ في عملية سطو. قلت في سرّي: حمدا لله ، ليس قتلا طائفيا لكن هل يهم الميت كيف ولماذا يموت؟ سرقة ، طمع ، كره ، طائفية؟ نحن الذين لم يصلنا الدور ، نظل نقلّب أمور الموت بينما الميت يموت ولايأبه» (المصدر نفسه: ٨٢).

نري في هذا النص أنّ الراوي يحمد ربّه لأن يري مقتولا بداعية السرقة ،لا لإمور طائفية ، حيث تظهر لنا أحداث طائفية وكثرتها في العراق ، كما أنّ الاغتيالات تدفقت وانهالت عليه من كل حدب وصوب ، فمنهم من يموت برصاصة أمريكية ومنهم من قُتِلَ لأسباب طائفية ، حتّي نري حمّودي الشخص الذي شغل منصب "الإمغسلچي" بدل والد جواد بطل الرواية ، نراه يردّ علي سؤال جواد قائلا:

«سألته ذات مرّة عن الذين يغسلهم فقال إنّ الكثيرين منهم يموتون برصاص الأمريكان ، لكن هناك الكثير من ضحايا الجرائم التي انتشرت بشكل لم يسبق له مثيل ، بالإضافة إلي التفجيرات والمفخّخات» (المصدر نفسه: ١٤٥).

ويسأل الراوي الذي هو "جواد" سؤالا من "حمّودي" حيث إنه أخذ يغسّل الأموات بدل "جودي" بعد ممات والده حوال تزايد الأموات ، فيروي له حمودي أحداث القتل برصاص الأمريكان ، ولم تنته الاغتيالات بل إمتدّت إلي شخصيات أدبية ودينية:

«افترسني الحزن بعد شهر من المعرض حين شاهدتُ علي شاشة التلفزيون رجالا يبحثون عن جثة دي ميليو في ركام فندق القناة الذي كان مقر الأمم المتحدة في بغداد بعد أن هجمت عليه شاحنة مفخّخة قتلته مع أخرين كثر. بعدها بأيام قتل محمد باقر الحكيم في النجف ثم توالت وتعدّدت التفجيرات ، الواحد يلد الآخر ، بدأت بقتل المهمّين والكبار ذوي الأسماء المعروفة وذوي الشأن» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٥١).

تفاقمت الأحداث وتكاثرت الإغتيالات في العراق ، ثمّ لم يكتف الإرهاب بهذا القدر من القتل بل أخذ يقتل رجال دين ، وقيام أمريكا بإغتيالات طائفية بنية تقسيم العراق إلي

دويلات عرقية ومذهبية ، لأن رسم خريطة الشرق الأوسط كان واحدا من أهدافها المستورة لغزو العراق ، لهذا حاولت أمريكا أن تتخّن جُرح العراقيين بإغتيالات طائفية.

الموت في الحروب

شهد العراقي في الآونة الأخيرة حروبا كثيرة ، منها الحرب العراقية الإيرانية ، ثمّ الغزو الأمريكي للعراق ، وفي حرب حزب البعث علي الشعب الايراني حيث أجبر الكثير من شباب العراق علي خوض هذه الحرب ،وقد فقد فيها بطلُ الرواية أخاه "أمّوري"؛ فالموت عند جواد بطل رواية "وحدها شجرة الرمان"كائن يجبر أقوي شخص علي الركوع:

«المرّة الوحيدة التي بكا فيها أبي عندما سمع بخبر موت أخي ، أمير ، الذي كان يكبرني بخمس سنوات ، والذي تحول من يومها من الدكتور إلي الشهيد» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٦).

جاء الروائي بتعبير يلائم الحدث ، فقال استشهد "أمّوري" ، أي أنّ حالات الموت تختلف حسب الحدث. فكانت لجواد أفكار غريبة و ناقصة عن الموت. لأنه كان لايري الموت إلّا «حادثا» يقع كل يوم. وهذا هو الالتباس الذي يقع فيه الناس حين يلغون عن الموت ، فليس الموت حدثا أو حالة وفاة أو نهاية تبلغها الأنا بعد أن تقطع عمرا طويلا أو قصيرا ، كما تصور لنا الأنطولوجيا التقليدية ، إنما على حد تعبير هيدجر «ظاهرة يجب فهمها وجوديا وهذه الظاهرة لابُدّ من توضيح معناها المتميز وتحديد معالمها» (أشرف ، ٢٠١٤م: ٧). إذن فالموت يجعل من الفرد العراقي وسيلة لافائدة منها بعد ضياعها ، فأمر الشهيد عند حزب البعث ليس إلا كومة لحمٍ:

«فرأيت سيارة أجرة وفوقها تابوت لُفّ بعلم... كنت أري في كثير من الأحيان تابوتا ملفوفا بالعلم فوق سيارة أجرة تسير في الشارع وأفكر لثوان باحتمال ألايعود أموري الي البيت علي قدميه بل جاثما فوق سيارة... الله يرحمه والبقية ابحياتك ، هو كل ما قاله العسكري الذي وقف يراقب المشهد بجانب الباب فوق الهيكل الحديدي... بدأ السائق بزحزحة التابوت وكأنه يعطيني إشارة بضرورة إنزاله» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٧).

إن الموت في نظر بطل رواية "وحدها شجرة الرمان"شيء غير محدّد ، لابد أن يأتي من مكان مجهولٍ يصيب مجهولين ، فهو مجرد حادث يصيب كل إنسان ولا يصيب إنسانا بالذات. مرّة يأتي علي هيئة شيخوخه ، ومرة يأتي بشاكلة حرب ، ومرّة بحادث انفجار. فأصبح الموت عند أبناء العراق حالة مألوفة وواقعا متكررا ، لهذا لايهربون منه. فالموت في الشارع العراقي يقيني محتوم لا مفرّ منه ، ويأتي هذا كلّه من تجربتهم بموت الآخرين ، بحقيقة معروفة جرّبها كل الناس قبلهم ، وقد تقع لمن يرعاه ويعزيه عن الموت ، ومؤقتا يري الموت بعيدا عنه وهذا توهم في الشارع العراقي. وقد يبكي جواد فقدان أخيه بصمتٍ بطيء:

«هطلت دمعة صامتة علي خدي وأنا أسرع إلي المحل لأنقل خبر موت أموري» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٨).

"أمّوري" كان الأخ الأكبر لـ "جواد" بطل الرواية ، فقد كانت هذه الشخصية قليلة الحضور في الحبكة السردية أمّا تأثيرها علي بطل الرواية يبقي حتّي نهاية الرواية ، حيث يتذكر جواد مواقف أخيه طيلة الرواية؛ وبما أنّ أمّوري قد مات في الحرب العراقية الإيرانية فقد كان جواد يري مماته أيضا في هذه الحرب:

«تُري هل كان موتي في هذه الحرب ، التي لايبدو أنها ستنتهي ، سيترك رُبع الفجيعة والحزن اللذان سيخلفهما غياب أمّوري» (المصدر نفسه: ١٩).

كان بطل الرواية يخاف الموت وكأنهُ لم يكن جاهزا لملاقاته ، لهذا يحاول الفرار منه ، رغم أنّه يدخل في موتٍ آخر وهو الإنعزال والإنفراد ، وتتغير العناوين حينما يأتي الموت في الحروب ، فتظهر مفردات تختصّ بموت الشخصية الروائية:

«سألت ريم عن السواد الذي كانت ترتديه ، فقالت إن زوجها توفّي قبل شهرين. عزّيتها بمصابها فشكرتني وابتسمت. قالت إنه كان ضابطا استشهد في الجبهة. ذكرتُ لها أن أخي شهيد أيضا». (المصدر نفسه: ٦٦).

يبين للقارئ من خلال هذا النص أنّ يوجد اختلاف بين مفهوم الشهادة ، فأمّوري مات مستحقا لمعني الشهادة ولكن زوج ريم بما أنه بُعثي ، فقد فرحت ريم بموته ، وهذا يدلُّ علي مقاومة الأفراد لتجاوزات حزب البعث. والفكر الإسلامي حول الموت يتعدّي حدود الماديات وقد «انتقل الإسلام بالإنسان من عالم الماديات المتمثل في الأصنام التي كان يصنعها بيده فيبيعها تارة ، وتارة يأكلها إن جاع إلي العالم الروحي حيث الإيمان بالله إيمانا مطلقا فالعقيدة المحمدية التي أراد الرسول (ص) أن يزرعها في المسلمين قبل أن يدخلهم في الدين ، فأراد الإسلام الإجابة عن قضية الموت والتي أعطاها أكبر اهتمام إذ نجد في كل سورة تذكير بالموت إما تصريحا أو تلميح».(قيطون ، ٢٠١٠م: ١٩٨). ويريد الفرد العراقي موتًا دون عذاب ، والشاهد علي هذا الموضوع إستشهاد باسم الجندي صديق جواد:

«كان باسم واحدا من ستّة جنود قضوا في ذلك اليوم. في المساء رافقت جثمانه في سيارة عسكرية من الوحدة وكان الآمر قد كلّفني بأن أبلّغ أهله رسميا. لم يقل أبوه الذي كنت قد قابلته قبلها مرتين ، شيئًا سوي «لاحول ولاقوة إلا بالله» إلا أنه سألني: خوما تعذّب؟ فأجبته بالنفي مع أنّي لم أكن متأكدا من ذلك» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٨٩).

نري الجانب الوجودي يهيمن سيطرته علي نصوص هذه الرواية ومن أهم ما أشادت به الفلاسفة أنه يجب علي المرء أن يتعامل مع الموت لا بشكل مشكلة بل بصيغة سرٍ مجهولٍ لاخوف منه ، لهذا كان جواد في بداية الرواية يخاف من هذا الموت الوجودي لكنه فيما بعد كان يخاطب الموت وكأنه قد عرف سره وفرح بلقائه. تعددت مفردة الحرب في رواية "وحدها شجرة الرمان" ، حيث نشهد حربا إيرانية عراقية ، وغزوا بعثيا للكويت ، وغزوا أمريكيا

للعراق ، فتكاثرت مفردة الموت في هذه الأثناء عند سنان أنطون ، وقد روي السيد فرطوسي ذلك الشخص المؤمن الذي كان يدفن الجثث التي تُترك في البر ، قصّته لجواد فيقول:

«لم يبق من وحدتي غيري أنا وجندي آخر من العمارة ، اسمه موسي.... الكل ماتوا ودُفنوا تحت الرمال» (المصدر نفسه: ١٦٣).

يروي الروائي أحداث الموت منذ حرب البعث علي الشعب الإيراني حتّي الغزو الأمريكي وتختصر هذه الحُقب بموت الفرد العراقي وكانت أهم أسبابها الطاغية البعثية. كان السيد فرطوسي جنديا متطوّعا في حزب البعث عند غزوهم للكويت ، وعندما حضرت القوات الأمريكية لردع القوات البعثية مرّت عليه ظروف بائسة وصعبة لهذا يحاول أن يعلن توبته وأن يقوم بأعمال صالحة ليخفّف عن نفسه وقع الدمار الهائل وموت الجنود آنذاك. كان الموت قد عاش مع السيد فرطوسي لسنوات حتّي يروي لـ جواد:

«فكرة موسي بالخروج عن الطريق الرئيسي هي التي أنقذت حياتنا وإلا لكنّا تفحّمنا مثل كل أولئك الذين رأيتهم يحترقون في مقاعد السيارات والذين تناثرت أشلاؤهم حولها. رائحة اللحم والشعر المحترقين أصابتني بالغثيان وظلّت تعذّبني في كوابيسي لأشهر بعدها» (المصدر نفسه: ١٦٤).

السيد فرطوسي هو و"موسي" استطاعا الهروب من براثن الموت في الغزو البعثي علي الكويت وحماية أمريكا من الكويت ، وكان فراره كمعجزة ،لهذا حاول أن يدفن الجثث التي لا تُدفن ليخفّف من ذنوبه ، لأن أصبح الموت وصوره رغم فظاعته أمرا عاديا في كافّة أرجاء الوطن ، والمواطنون قد اعتادوا علي رؤية القتلي والجرحي.

الجنون

كان القلق والكوابيس والأحلام والأمنيات قد جعلت شخوص الرواية تقترب إلي حدّ الجنون ، فالكوابيس قد تكاثرت في أحلام جواد والسيد فرطوسي وباقي شخوص الرواية ، فبعد مشاهدة أحد الكوابيس يقول السيد فرطوسي :

«في الكابوس الآخر كنتُ أري أهلي كلهم يحترقون ويتفحّمون وأنا أحاول أن أدلق الماء من زمزميتي عليهم كي أنقذهم. لكن الزمزمية كانت خاوية فأبدأ بنثر الرمل عليهم وكنتُ أشم تلك الرائحة المقزّزة من جديد ثم أصحو. أخبرتُ ابن عمّي بهذه الكوابيس والأرق الذي خرّب أيامي فنصحني بالذهاب إلي الجامع وبالصلاة وكان محقا فقد أنقذت الصلاة روحي وعقلي من الجنون الذي كان يزحف باتّجاهي» (المصدر نفسه: ١٦٥).

ليس الجنون حالة فقدان العقل فحسب ، بل يمثّل حالة مَرَضية سلبية انفعالية؛ فميشيل فوكو يميز بين نوعين من الجنون «إمّا مأساتي أو نقدي ، المأساتي يغلب عليه طابع الانفعال المرضي ، حيث تفقد فيه القدرة علي إنتاج معرفة معينة كيفما كان المحيط الذّي توجد فيه ، وهو بعيد كل البعد عن الوصول إلي اكتشاف الحقيقة والتعبير عنها ، أمّا الانفعال فهو جنون

بمحتواه الإيحائي وبفعله النقدي لما هو سائد وموجود باكتشاف الحقيقة وبتعريته للواقع الاجتماعي». (الكرون، ٢٠١٥م: ٩). إذن القلق والخوف، والإدمان والكوابيس تتعلّق بظاهرة الجنون في الفلسفة وعلم النفس.

القلق والخوف

يعدّ القلق والخوف بالدرجة الأولي حالتين نفسيتين تصيبان الإنسان لعوامل عديدة؛ فالقلق تقابله السّكينة وراحة البال، والقلق انفعال إنساني سلبي، ومثيراته كثيرة ومختلفة منها: الصحّة، والعمل، والمستقبل ويندرج الموت ضمن أهمّ هذه المثيرات «فليس كالموت سبب للقلق» (عبدالخالق، ١٩٩٨م: ١٢). فالموت وإن كان حقّا لا أحد ينكر مرارته وألمه، فكيف اذا كنّا بصدد الخوف من موت بشع بيدّ إرهابية أو غيرها لها باع طويل بالتفنّن في التعذيب. أمّا الخوف فتقابله الطمأنينة والأمان، وهو انفعال سلبي سيما إذا كان الذي نخافه هو الموت، فسيكون الخوف منه من «البواعث الأساسية والرئيسة للإنسان، فالإنسان القديم حينما بدأ يؤمّن حياته ممّا يقتات عليه، ويحمي نفسه من الوحوش الضارية... كلّها كانت بدافع غريزي هو حبّ البقاء أو حبّ الحياة، وتحدّي شبح الموت من أن يأخذه إلي عالم مجهول». (عبدالله، ٢٠٠٩م: ٥١٣). هنا بطل الرواية "جواد" يظهر خوفه وقلقه قائلا:

«أمّا أنا، فقلبي بيت مهجور، شبابيكه مكسورة وأبوابه مخلوعة، تعبث به الأشباح وتتنزّه فيه الريح» (أنطون، ٢٠١٣م: ١١).

حافظ

"جواد "بطل رواية "وحدها شجرة الرمان" علي وحدانيته منذ البداية حتّي النهاية حيث استطاع أن يروي أحداث العزلة ومخاوفها من أفكار وكوابيس؛ وكان سنان قد تطرق الي خوف الشارع العراقي من الموت في الكثير من الأمور، وعندما يصف أمر الموت الذي يخصّ حمّودي وأُمه، تختلف أسباب الخوف والقلق من هذا الموت، فقد ظهر الخوف و القلق هنا بسبب موت والد حمّودي وزوج أُمه الثاني:

«كان حمّودي أكبر منّي بخمس سنوات. مات أبوه عندما كان في الثالثة من عمره وتزوّجت أمّه من رجل ثان بعد سنتين، لكنّه تأسّر في حرب إيران حيث كان من ضمن قواطع الجيش الشعبي واعتبر مفقودا لأنه لم يعد بعد نهاية الحرب. ولم يتزوجها أحد بعد ذلك إذ كان الناس يقولون إن كل من يتزوّجها سيموت» (المصدر نفسه: ٢٧).

"حمّودي" ضحية بريئة من أحداث الحروب، فقد مات أبوه ولم يتذكر ملامح وجهه، ثُمّ تزوجت أُمه من شخص حيث مات في حرب البعث علي الشعب الإيراني وبقي من غير ملاذ، لهذا كان ملاذه هو و أُمه غسل الأموات، لأن الجنون والذعر من الموت جعل الأفراد يخافون من

اقترابهم من أُمه بسبب الشؤم الذي طاف بالعائلة؛ وعندما مات والد جواد ، اخذوه للنجف كي يدفنوه هناك بناء علي وصيته وفي الطريق يتلاقون مع الجيش الأمريكي ، فيقول جواد:

«وقفنا وأخذنا ننفض التراب عن ملابسنا. أدركتُ بأننا نجونا من موت محقّق وأن أقلّ حركة كانت ستعني زخّة رصاص تنهي كلّ شيء» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٠٠).

تطلعنا رواية "وحدها شجرة الرمان" علي ما عاشه الشعب العراقي في تلك الفترة المأزومة ، فالخوف أصبح يكتنف قلوب جميع الناس بمختلف درجاتهم الاجتماعية ، حتّي الفقير أصبح يخاف من الإختطاف ، والتفجيرات ، والإغتيالات ، مما أدت هذه الحالة إلي زعزعة نفسية و خوف و هروب من العراق. فالرواية تشرح لنا الوضع العام ، حيث عاش الفرد العراقي حالة من القلق والذّعر والخوف فالذي يخرج في الصباح لايأمل في الرجوع ليلا.

الحلم

يعدّ الحلم وسيلة يقوم بها العقل حتّي يحدث «التوازن الناتج عن الخلل الذي يصنعه الواقع بمفارقاته» (مورافيا ، ١٩٨٠م: ٢١٠). وعليه فاللجوء إلي استثمار الحلم يكون لاستعادة الأشياء وتحويله —الحلم- لعنصر يساعد على التوازن ، وبه يتمّ فسخ المجال أمام حرية الأحلام والرّؤي ورمزية الأشياء ، وأيضا أمام تكسير الحدود بين الواقع والمحتل وبين الحقيقي والمتخيل ، والحلم يحيل إلي ما هو مفقود. نجد "جواد" بطل رواية "وحدها شجرة الرمان" يحلم بعودة ريم التي تركته لأسباب عدّة أهمها عدم وجود الأمان في العراق ، فنقرأ:

«كانت تنام عارية علي دكة مرمر في مكان مكشوف بلاجدران أو سقف... أحسستُ بألم حاد وبالسكين الباردة تخترق عنقي. سال الدم الحار علي صدري وظهري. سقط رأسي علي الأرض وتدحرج علي الرمل ككرة... استيقظتُ لاهثا ومبللا بالعرق...» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٨-٩). وهنا نري جواد قد وصل حدّ الجنون وكان يخاف الموت لهذا يقول: «لايكتفي الموت منّي في اليقظة ويصرّ علي أن يلاحقني حتي في منامي» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٠-١١).

وقد سلبت الكوابيس راحته وهو يتعجّب من حضور ريم في كوابيسه:

«لم تكن ريم تلعب أي دور رئيسي في كوابيسي حتي قبل أسبوعين» (المصدر نفسه: ١١).

بما أنّ سنان أنطون خلق فقرات كثيرةً لأحلام "جواد" بطل الرواية وأكثرها تدل علي اضطراباته ، وخوفه من المجتمع وحنينه إلي ريم ، إلّا أن حلم جواد الأساسي هو الخروج من الوطن وإكمال دراسته ، لذا مزج الحُلم بالأمنية قائلا:

«بدأت أحلم بيوم يكون لي فيه موقعي الخاص» (المصدر نفسه: ١٣٩).

ولم يكن الحلم والأمنية لجواد فحسب ، بل ظهرت الأحلام والكوابيس في عالم السيد فرطوسي ، بعدما شهد مجازر في أنحاء البصرة عند غزو الكويت ، فيقول:

«ظننتُ يا أخي ، أنّني كنتُ قد تركتُ كل تلك المناظر ورائي ، لكن تلك الكلاب السائبة لحقت بي إلي بغداد بعد أسابيع من عودتي وبدأت الكوابيس. كنت أري ستة أو سبعة كلاب تنهش الجثث وكلما انحنيتُ والتقطتُ حجرا لأرجمها به كان الحجر يتفتّت ويصير ترابا» (المصدر نفسه: ١٦٥).

فقد كان الحُلم والكوابيس في رواية "وحدها شجرة الرمان" تلعب الدور الأساسي لتمهيد الفكرة للمتلقّي حيث أنّ الروائي يأتي بحلم قبل كل فقرة ثم يلائم الواقع مع ذلك الحُلم كما فعل بوصف شخصية السيد فرطوسي والكوابيس التي كانت تلاحقه بعد أحداث غزو الكويت. إنَّ خطاب الحُلم في رواية "وحدها شجرة الرمّان "ظهر في مستويين: مباشر :حُلم منامي وغير مباشر: أحلام اليقظة ، وكان الحالم هو الراوي وحده ولكلّ من المستويين البُعد الإيحائي الذي له الدور المهمّ في بناء نسيج الرواية ، حيث أتت في سياق الحبكة الروائيّة ، تمتزج بالشعور الذي يتداعي على ذاكرة الراوي وهي تشبه دراما ذهنيّة حاضرة بقوّة في هيكلة الرواية من خلال الشعور بحالات الضياع التي يعاني منها الراوي ، وقد كانت تخضع لمعايير البناء المتداخل واللغة الرمزيّة والوصف القائم علي معاناته الشعوريّة.

الإدمان

بعد ما سقطت العاصمة بغداد بيد الاحتلال الأمريكي ، عمّت الفوضي أرجاء العراق ، مما أدّي إلي انتشار ظاهرة الإدمان بشكل لافت ، فسنان أنطون يروي لنا هذه الأحداث أثناء غسل أحد الأموات قائلا:

«نظرتُ إلي الورقة: الاسم الثلاثي واللقب: جاسم محمد علوان. الجنس: ذكر. تاريخ الولادة: ٥-٨-١٩٨٢ سبب الوفاة: تسمّم/ كبسولات. أعدتُ الورقة إليه دون أن أقول شيئا. مات في الرابعة والعشرين حتّي قبل أن تبدأ حياته بالتفتّح. كانت الكبسلة والمخدرات قد انتشرتا بين الشباب بشكل لا سابق له» (المصدر نفسه: ١٧٩).

فقد كانت ظاهرة الإدمان قد انتشرت بين الشارع العراقي بصورة لافتة إثر الوضع المتدهور جراء الاحتلال الامريكي ، وراح ضحيتها الكثير من الشباب ، الأمر الذي جعل الكثير من الأدباء الملتزمين يصرفون جلّ إهتمامهم إلى مثل هذه القضايا حيث عكسوا الإدمان في نصوصهم بشكل لاسابق له.

الهروب؛ طوق النجاة من الموت

يعدّ الهروب وسيلة دفاعية ، يستخدمها الإنسان لدفع خطر ما محدق به ، «فيضطرّه الهروب كي يحمي ذاته ، وهو وسيلة الإنسان منذ خليقته الأولي ، وقد يكون هذا الهروب من الواقع المرّ إلي الخيال والأحلام ، أو من العنف والاستبداد المسيطر علي مكان معين ، وقد يكون الهروب حتّي من الحبّ في بعض الأحيان ، حينما لا يلاقي صداه في نفس الآخر»

(مورافيا ، ١٩٨٠م: ١٧٠). والهروب مادّة دسمة للعديد من المشاكل. نجد الهروب في رواية "وحدها شجرة الرمان" أمرا جليا لدي أكثر شخوصها ، إذ نجده عند "جواد" بطل الرواية حيث أراد أن يهرب من العراق ومن المغيسل فيقول:

«ألا يكفيه أنّني أُكدُّ طول النهار معتنيا بضيوفه الأبديين وبتحضيرهم للنوم في أحضانه؟ هل يعاقبني لأنني ظننُ بأنني كنتُ قادرا علي الهرب من براثنه» (المصدر نفسه: ١٠).

ثمّ يتمنّي حضور والده لكي يسهّل عليه أمر الفرار من العراق:

«ليتك كنت هنا كي أترك الوالدة معك وأهرب بدون أن يلاحقني شعور بالذنب» (المصدر نفسه: ١١).

يتمنّي "جواد" لو لم يمت والده ، لكي يستطيع الهروب من العراق ، ولكن كان يخاف ترك أُمه لهذا كان يري نفسهُ مقيدا في العراق ، وكان يعيش بأمل حيث يهرب يوما ما. كما أن حبيبته ريم كانت قد هربت من العراق ، حتّي أنه لايعرف مكانها: «تُري أين هي الآن؟ آخر ما سمعته عنها قبل سنين كان أنها في أمستردام. ربما أبحث عنها في الغوغل من جديد في مقهي الإنترنت بعد العمل غدا» (المصدر نفسه: ١١).

كانت الأوضاع الأمنية والفوضي الحاصلة قد هجّرت الكثير من أبناء العراق الي بلدان اخري ، وكان جواد من الذين يحبّذون الهروب من العراق و بما أنه لايستطيع الهروب من العراق بسبب وفاة والده و وجود والدته نراه يلتجئ إلي عالم آخر لنسيان ما يجول في فكره من فرار و حرية:

«كنتُ أتسكع في الإنترنت كما تعوّدتُ أن أفعل مؤخرا للهروب من عالمي إلي عوالم أخري» (المصدر نفسه: ٧٢).

لم يحب محادثة أحد في البيت أو غير البيت ، فقد كان بطل الرواية يحب العيش منعزلا مطويا علي وحدته ، لهذا كان يفضّل الهروب إلي عالم آخر غير عالمه و هو عالم الإنترنت. ثمّ يروي "جواد" قصّة "صبري" الذي كان ينتمي إلي الحزب الشيوعي في العراق وهرب خوفا من الإعدام:

«كنتُ في العاشرة من عمري عندما زارنا آخر مرّة ، كان دائما يعانقني ويقبّلني بحرارة عندما يراني وكذلك عندما يودّعني. لكنني لمحتُ تلك المرّة حزنا وغيوما في عينيه وهو يقبّلني وقال: مو تنسي عمّك». (المصدر نفسه: ١١٨).

كان حزب البعث يري الشيوعيين أعداء له ، لهذا حاول أن يقضي علي الحزب بأكمله ، فبدأ بإعدام من ينتمي إليه:

«بعد عدّة أشهر كنتُ أكتب واجباتي المدرسية وكان هناك خبر في التلفزيون عن إعدام ضبّاط شيوعيين من الجيش ، فسمعتُ أبي يقول لأُمّي: هذا مصير جماعة صبري.ماراح يخلّون ولا واحد منهم. همزين طلع» (المصدر نفسه: ١١٨).

وقد ذكر سنان أنطون عداوة حزب البعث للشيوعيين بقوله:

«عندما عاد أمّوري {أخ جواد}إلي البيت سألته عن عمّي صبري وعن معني الشيوعية ، فقال لي إنّ الشيوعيين والبعثيين أعداء ألداء وإنّ عمّي صبري هرب لأنه كان مطاردا» (المصدر نفسه: ١١٨-١١٩).

لم يكن صبري هو الوحيد الذي فر من العراق بل هناك الكثير ممن إضطهدهم طغيان حزب البعث و هربوا من العراق طالبين الحرية والنجاة ، فعندما احتفل الحزب الشيوعي بميدان التحرير في العاصمة بغداد يروي جواد قائلا:

«أبصرتُ سيدة في الستّين من عمرها تصفّق وترقص. قال عمّي إنّها شيوعية قديمة عائدة من لندن يعرفها من صورتها لأنها تكتب بعض المقالات» (المصدر نفسه: ١٣٢).

فليس الشيوعيون فقط يريدون الهروب من البلاد ، بل حتّي الأشخاص العاديين يحاولون الفرار من العراق لأسباب أمنية ورفاهية ، لهذا عندما سأل صبري ابن أخيه جواد عن مخططاته ، يردّ عليه:

«سألني عن مخططاتي ، فقلت له إنّ حلمي هو أن أكمل دراسة الفن في الخارج. في إيطاليا أو أي بلد آخر» (المصدر نفسه: ١٣٥).

وكان جواد يري بأن أصدقائه الذين تركوا العراق لأسباب مختلفة ، صارت لديهم مناصب ومواقع خاصة يعرضون فيها أعمالهم مما يدلّ علي نجاحهم و ترقّيهم في هذا الهروب.

«كنتُ أشعر بالفخر والإعجاب حين أجد أن بعض زملائي من الذين هاجروا منذ سنين قد نجحوا وصار لديهم مواقع خاصة يعرضون فيها أعمالهم الفنية» (المصدر نفسه: ١٢٩).

فوالدة جواد تخبره بأن أُم غيداء وهي خالة جواد ، قد هربت مع ابنها وبنتها من منطقتهم بسبب التهديد بالقتل قائلة:

«قالت إنّ أُم غيداء وأولادها في وضع صعب جدا لأنهم لايستطيعون البقاء في بيتهم في العامرية بسبب التهديدات والقتل» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٩٢). ثمّ أن هذه التهديدات اصبحت سببا لخروج العائلة من الوطن: «ثم قالت إنّهم سيسافرون إلي السويد بعد أسابيع للالتحاق بخالها لأن معاملة اللجوء اكتملت» (المصدر نفسه: ٢١٨).

وفي نهاية الرواية حاول "جواد" بطل الرواية أن يهرب من العراق ، لكنه لم يفلح بقرار الهروب هذا:

«كنتُ قد سمحتُ لنفسي بأن أتخيل هروبي من الجحيم الذي كنتُ قد كبّلتُ به... بعد ساعة انتظار في الرويشد وطابور طويل نظر الضابط الأردني بعينين متعبتين إلي جوازي وسألني بشيء من الحدية: معك حدا؟ فأجبته لا ، بس آني بوحدي. فألقي بالجواز أمامي قائلا: ممنوع زلام ، بس عوائل» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٢٥١).

فالهروب من الوطن هي حالة من حالات الموت الاجتماعي لدى الفرد العراقي ونرى في هذه الرواية شخصيات وعوائل كثيرة فرّت من العراق لاسيّما جواد الذي كان يحاول الهروب من العراق.

اختطاف

من الملفت للنظر أن سنان أنطون حاول أن يخلق فضاءات دلالية للسجن في رواياته ، وأن يجعل الهروب و الاختطاف ظاهرة من ظواهر السجن ، فأصبح الهروب من العراق والشارع العراقي

بمنزلة الحرية والهروب والخلاص من السجن.كما أن الإختطاف أخذ حيزا وسيعا من الرعب في الفكر العراقي، فمن يختطف بمعني دخوله عالما لم يكن بالحسبان. تكاثرت ظاهرة الإختطاف بشكل هائل في العاصمة بغداد، بعد ما عمّت الفوضي في أرجاء العراق، لدرجة أنهم لم يستثنوا أحدا، فحتّي حمودي الذي كان شخصا بسيطا وضعيف الحال لم يسلم منه أيضا:

«ونذرت أمه أن تمشي إلي النجف إن عاد حمّودي، لكنه لم يعد إلي اليوم. هل اختطفوه ظنا منهم أنّه تاجر غني؟ لكن مظهره وعمره لا يوحيان بذلك أبدا والمختطفون يتّصلون بعوائل الرهينة للتفاوض علي الفدية التي لا يسلمون الرهينة أو الجثة إلا بعد الحصول عليها» (أنطون، ٢٠١٣م: ١٥٣).

غاب حمّودي وقد مرّت أيام علي غيبته، حتّي أجبرت الحاجة جواد للرجوع إلي المغيسل الذي كان مكانه الأساسي، وعندما جاء ليفتح المغيسل وجد مهدي عند الباب:

«سألته عن ذلك فقال أنّه تركها منذ سنتين لكي يساعد أهله. كان يبيع المرطّبات والمأكولات في البداية، لكنّه بدأ يعمل مع خاله إلي أن اختفي. تهدّج صوته وهو يذكر ذلك. قلت له: ان شاء الله يرجع. مع أنني كنت قد فقدت الأمل في ذلك» (المصدر نفسه: ١٧٤).

تعتبر الجريمة الإختطاف من الظواهر والجرائم الإجتماعية الخطيرة لما لها من آثار على جوهر الحياة الاجتماعية والإنسانية وهي الحرية والأمن الشخصي. والاختطاف هو: فعل إجرامي خطير ومؤثر يتضمن نقل المخطوف عليه من قبل الجاني وفصله عن عائلته وعشيرته ومكانه الأصلي بطريقة عمدية الى مكان آخر بهدف الاحتفاظ به ومراقبته بشدة. (هدي طالب، ٢٠٢١م: ٢). وعندما جاء والدٌ برأس ابنه المذبوح دون جثّة، يسرد لنا الروائي قصّة الرأس المخطوف قائلا:

«هو چان يشتغل مهندس. خُطفو أسبوعين ما نعرف عنّه أي شيء. ماخلّينه مركز شرطة أو مستشفي ما سألنا بيهه. وبعدين گُمنه الصبح فد يوم شفناهم حاطّين هذا الچيس الأسود اللي جبته گِدّام الباب... چانو حاطّين رسالة تگول: إذا تريدون الباقي فإدفعوا دفترين، يعني عشرين ألف دولار» (المصدر نفسه: ٢٢٣).

فكان الاختطاف من الأمور الشائعة في عراق بعد الاستعمار، ومن هنا ظهرت الديستوبيا الموجودة في رواية "وحدها شجرة الرمان". ونظرا لخطورة هذه الجريمة وبشاعتها وانتهاكها لحرية الانسان، لذا نص قانون العقوبات العراقي (١١١) سنة (١٩٦٩) في المادة ٤٢١ من قانون العقوبات على أنه (يعاقب بالحبس من قبض على شخص أو حجزه أو حرمه من حريته بأية وسيلة كانت بدون أمر من سلطة مختصة في غير الأحوال التي تصرح فيها القوانين والأنظمة وتكون العقوبة السجن مدة لا تزيد على ١٥ سنة وخاصة اذا كان الفاعل متنكرا بزي مستخدمي الحكومة أو حمل علامة رسيمة مميزة له إضافة الى التهديد بالقتل والتعذيب والانتقام). (شافي، ٢٠١١م: ج١، ٢٠٩).

الخاتمة

لايزال العدم والوجود يحتلّانِ حيزا وسيعا في الأدب الروائي في جميع أنحاء العالم لأن الحروب المعاصرة أدّت إلي مذابح جماعية في الجنس البشري بأكمله ودليل علي هذه المقولة الحروب العالمية الأولي والثانية ومن ثم إختراع آلات قتّالة للفتك بالجنس البشري لهذا قد علا صراخ الأدباء من خلال يراعهم في النصوص التي لوّنوها بلون هذه المذابح. في الأدب العراقي الحديث وتحديدا بعد سقوط الملكية واستيلاء حزب البعث بعد حركة ١٤يوليو ١٩٥٨ علي يد قيادة تنظيم الضباط الوطنيين ومن ثمّ بزوغ الحزب البعثي وظهور الفكر الصدامي في عام ١٩٧٩ كل هذا أدّي إلي ظهور لون من الأدب يعالج القضايا الاجتماعية والواقعية.حدّثنا الروائي عن القلق والخوف ، وكم كان بارعا في نقل براءة الشعب العراقي ، قلق قد عاشه بطل الرواية في وطنه بسبب ما آلت إليه الأوضاع في الوطن. بعد أن اتخذت دراستنا من رواية "وحدها شجرة الرمان" لسنان أنطون أنموذجا للحديث عن صورة الموت المتجلي في السرد العراقي المرتبط بحقبة زمنية عرفت بتأزمها ومحنتها ، وبعد الخوض في مضامين الموت في الرواية كشفنا بأن الروائي صبّ جل اهتمامه لوصف الموت في المجتمع العراقي حيث اختلفت المواضيع والقضايا والأشكال وكان الموت واحدا ، وشملت هذه المواضيع ثلاثة محاور رئيسية هي القتل ، والجنون والسجن. وكان القتل بمحاور فرعية كالإغتيال وتصفية الحسابات والاختطافات له البصمة الأكثر وضوحا في نص الرواية ، كما أنّ للجنون دورا مهما في المجتمع العراقي حيث أن القلق والخوف والحُلم والإدمان نكلت بالفرد العراقي حسب نص الرواية ، وبحث الفرد العراقي عن الخلاص من هذه الأزمة ، لهذا حاول أن يهرب من سجن اسمه العراق ، فبطل الرواية لم يفلح بهذا الهروب. فهذه الرواية قد شكلت حبكة مبتنية علي الموت. تجلّى الموت في الرواية بصورة مكثفة منها القتل ، كالاغتيالات ، والتعذيبات ، وتصفية الحسابات ، والخيانة ، والجنون الذي يعد حالة من موت اجتماعي تشكلت على سياق القلق والخوف ، والحلم ، والادمان ، وفي السجن نرى زواياء الهروب والاختطاف والاغتراب ، والدوافع التي شكّلت هذه القائمة هي حالة قلق الروائي والخوف عن مستقبل العراق وشعبه واليأس من اصلاح المجتمع ، وسط هذه الكوارث الانسانية في الحروب والتشكلات الطائفية.

المصادر

القرآن الكريم

ابن منظور ، لسان العرب ، (٢٠٠٥م): ط1 ، ج٦ ، تحقيق أحمد حيدر ، بيروت: دار الكتب العلمية.

أنطون ، سنان ، (٢٠١٣م) ، وحدها شجرة الرمان ، ط١ بيروت: لبنان منشورات دار الجمل.

شايف ، نادر عبدالعزيز ، (٢٠١١م) ، نظرات في القانون ، ج١ ،ط١ ، بيروت: منشورات زين الحقوقية.

شورون ، جاك ، (١٩٨٤م): الموت في الفكر الغربي ، ترجمة: كامل يوسف حسين ، مراجعة: إمام عبدالفتاح إمام ، الكويت: عالم المعرفة.

عبدالخالق ، أحمد ، (١٩٨٧م): قلق الموت ، ط١ ، الكويت: عالم المعرفة للطباعة والنشر.

عبدالله ، إبراهيم وآخرون ، (٢٠٠٩م): الموت والخوف منه عند فلاسفة اليونان والإسلام ، مجلّة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية ، العدد٤ ، المجلّد الأوّل.

عمر ، أحمد مختار ، (١٩٩٧م): اللغة واللون ، ط٢ ، القاهرة: علام الكتب.

فرويد ، سيجموند ، (١٩٩٢م): الحبُّ والحرب والحضارة والموت ، ط١ ، دراسة وترجمة: عبدالمنعم الحنفي ، القاهرة: دار الرشد.

قيطون ، أحمد ، (٢٠١٠م) ، تيمة الموت في الشعر الجزائري المعاصر ، مجلة الأثر ، عدد١٠ ، كلية الآداب واللغات جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة الجزائر.

كرم ، أنطون غطّاس ، (١٩٤٩م): الرمزية والأدب العربي الحديث ، بيروت: دار الكشّاف.

محمّد الكرّون ، دلالة الجنون في رواية موت المجنون ، للروائي حميد المصباحي ، الإتحاد الإشتراكي ، ١٦-١٢-٢٠١٥ ، متاح على الشبكة ، ٢٠١٨/١١:٢٣-١١-١٦/ http;//www.maghress.com

مشوح ، وليد ، (١٩٩٩م) ، الموت في الشعر العربي السوري المعاصر ، إتحاد الكتاب العرب ، مكتبة الأسد ، دمشق ، د ط.

Sources

The Holy Quran

Ibn Manzoor**,** *Lisan al-Arab*, (2005 AD): I 1, part 6, edited by Ahmed Haidar, Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyya.(In Arabic)

Antoun, Sinan, (2013 AD), *Alone The Pomegranate Tree*, 1st Edition, Beirut: Lebanon, Dar Al Jamal Publications.(In Arabic)

Youssef Hussein, review: Imam Abdel Fattah Imam, Kuwait: The World of Knowledge. .(In Arabic)

World of Knowledge for Printing and Publishing. (In Arabic)

Omar, Ahmed Mukhtar, (1997 AD): *Language and Color*, 2nd Edition, Cairo: Allam al-Kutub. (In Arabic)

Freud, Sigmund, (1992 AD): *Love, War, Civilization and Death*, 1st Edition, Study and translation: Abdel Moneim Al-Hanafi, Cairo: Dar Al-Rushd. (In Arabic)

Karam, Antoun Ghattas, (1949 AD): *Symbolism and Modern Arabic Literature*, Beirut: The Scout House. (In Arabic)

Abdullah, Ibrahim et al. (2009): *Death and the Fear of It for the Philosophers of Greece and Islam*, Anbar University Journal of Islamic Sciences, Issue 4, Vol. (In Arabic)

Qaitoun, Ahmed, (2010 AD), *Theme of Death in Contemporary Algerian Poetry*, Al-Athar Journal, No. 10, Faculty of Arts and Languages, Kasdi Merbah University, Ouargla, Algeria. (In Arabic)

Muhammad Al-Karoon, *The Sign of Insanity in the Novel The Death of the Majnun*, by Hamid Al-Misbahi, Socialist Union, 12-16-2015, available online, 11:23/2018-11-16/ http://www.maghress.com

Mushawah, Walid, (1999 AD), *Death in Contemporary Syrian Arab Poetry*, Union of Arab Writers, Al-Assad Library, Damascus, d. (In Arabic)